درة الغناء العربى

أم كلثوم

ظل الغناء العربى مقصورا على المرأة لفترة طويلة. لا يسمح للرجال بممارسته. ومن يسع منهم يتهمه المجتمع بأفظع الاتهامات. وإذا كان الغناء قد بدأ على حناجر القيان والجوارى فإن التاريخ يسوق لنا أسماء كثيرة لمغنيات فضليات استطعن أن يجعلن من هذا الفن وردة فى الحياة العادية، ومنبرا للتثقيف والمشاركة فى قضايا المجتمع. وسيفا تحارب به إلى جانب الرجال المقاتلين من أجل المبادىء..

والمرأة هى التى نجحت أكثر من الرجل فى توسيع دائرة المتلقين للغناء العربى وجعله فنا عالميا لا يتوقف تداوله على المناطق العربية المحلية. بل يدرس فى الأكاديميات العالمية. وتشهد له كبريات الصحف ومنها «لو موند» الفرنسية التى أجرت استطلاعا لرأى قرائها حول أفضل مائة عمل فنى وأدبى شكلت ذاكرة القرن العشرين فى العالم وجاءت القصيدة الغنائية «الأطلال» لأم كلثوم، واحدة من هذه الأعمال التاريخية. جنبا إلى جنب مع السيمفونية التاسعة لبتهوفن. والسيمفونيات الرابعة والخامسة والسادسة لتشايكوفسكى كأعمال فنية سوف تبقى كتراث إنسانى للأجيال القادمة.

ومع كل التقدير لكل امرأة ذات صوت حسن فى التاريخ العربى. فإن الغناء قد اتخذ فى معظم حالاته، شكل الترفيه عن الخليفة وأعضاء مجالسه وأن الغالبية العظمى من المغنيات كن من القيان أى الجوارى بما يعرف عن دورهن فى حياة الحكام ووجهاء القوم. وهو دور ترفيهى ولا يمكن التأكد من أنهن كن يحصلن على الاحترام الكامل لا من السميعة ولا من المجتمع العربى.

ويذكر لنا التاريخ أن المغنية الفلانية كانت جميلة المحيا ولذلك سعى الحاكم أن يقربها إليه، وبذلك تكون قد تخطت حدود مهنة الغناء إلى أشياء أخرى، منها أن تكون محظية.

وعرف تاريخ الغناء النسائى بعض المطربات الأكثر التزاما. وهن صاحبات تراث فى الغنـــاء الجاد من القصائد الوطنية أو العاطفية الراقية. ومع ذلك لم يتبرأن من الســقوط فى أعمال ليســت على المســتوى المطلوب. وفى سلوكيات ترفضها الأخلاق الحميدة أو السير العطرة.

فالمطربة الكبيرة منيرة المهدية مثلا والتى اعتلت المســرح بغنائها وغنت قصائد الشــيخ سلامة حجازى وأدوار وطقاطيق سيد درويش، لايخلو تراثها من أغنيات يضرب بها المثل على هبوط الغناء فى عصرها. فهى صاحبة الطقاطيق المعروفة «أحب استلطف وألاغى» و «يا عينك يا جبايرك» و «ســيرتو» و «إرخى الستارة اللى ف ريحنا.. أحسن جيرانا تجرحنا.. بعد العشــا يحلى الهزار والفرفشــة» و «ما تخافش عليه دانا واحدة ســوجوريا». و «الحلو بيتدلع»..وغيرها.

فهل ابتعد مستوى الكلمات عما تغنت به «العوالم» فى النصف الأول من القرن العشرين من أمثال بمبة كشّــر التى غنت «ما بين البرســيم والخضرة.. أحبك ياللى ماشى» أو بهية المحلاوية التى غنت «يا بتاع النعناع يا منعنع.. بلدى وأديلك بوســة.. من خدى وأوهب لــك حالى وأمــوالى..» وحتى أمينة الصيرفية محظية الخديو. وكانت تغنى كلمات مســفّة أمثال «جاب اللى اللمبة ميه وحبه.. واديها لأمك بلا مسخرة.. جاب لى القبقاب فى وابور ركاب.. ما تنفعنيش يابن المره».

بصفة عامة كان الغناء النسائى، من قصائد وأهازيج وطقاطيق، عبر التاريخ الموسيقى العربى كله، أكثره فاســدا وأقله يســتحق الاحترام. وهو ما يؤكد أن مســيرة أم كلثوم منذ طفولتها تجعل من هذه الســيدة والفنانة العظيمة درة الغناء العربى على مدى تاريخه منذ فجره إلى نهاية القرن العشرين. وإنها ليست مجرد عصر من الغناء إنما هى أعظم ما فى الغناء العربى كله ما جاء بأصوات الجنســين الرجال والنســاء. خاصة بعد أن هيّأ المطرب والملحن محمد عثمان وأيضا عبده الحامولى والشيخ سيد درويش المناخ الغنائى لتغيير مسار الغناء العربى. ليتبوأ منزلة عالية فى حياتنا ويســاهم بدور إيجابى فى صياغة سليمة للوجدان. وكان هذا هو الدور الذى قامت به بنجاح عظيم «أم كلثوم».

ولـدت أم كلثوم فى ٣٠ ديسـمبر ١٨٩٨ فى طماى الزهايرة مركز السـنبلاوين محافظة الدقهليـة. وكانت القرية هى المصنع الذى حررت فيه موهبة الطفلة الصغيرة بنت الشـيخ إبراهيم البلتاجى وصاحب البطانة الشهيرة فى القرية والقرى المجاورة.

ارتـدت الطفلة العقال والقفطان لتبدو ولدا فلا ينظـر الجمهور الريفى إليها نظرة انتقاد أو امتعاض. ولفتت نظر كبار ملحنى عصرها. وكانت تحلم برؤيتهم منهم. الشـيخ أبوالعلا محمد والشيخ زكريا أحمد ثم التقت برياض السنباطى على محطة السكة الحديد بالمنصورة. ولم يكن يعرف كل منهما أن القدر سوف يربط اسمهما ببعضهما فيما بعد ويتركان للتاريخ عددا من أجمل ما فى تراثنا الغنائى: القصائد والأغنيات العاطفية والدينية والوطنية.

يحلـو للبعض أن يطلق على الفترة التى عاشـت فيها أم كلثـوم تغنى «عصر أم كلثوم» صاحبة الشـخصية الفريدة، والصوت العبقرى الذى تسيد الغناء على مدى القرن العشرين فكل الأصوات النسائية التى عاشت فى عصرها إما أن تكون قد خرجت من تحت معطفها أو تدربت عليه أو هربت من منافستها فاختارت لنفسها ألوانا أخرى.

واحـدة من هذه الأصوات هـى فتحية أحمد المولودة ١٨٩٨ والتى بـدأت الغناء بتقديم الأدوار التى لحنها سيد درويش، ثم تاهت بين الألوان الغنائية المتباينة. فمرة تغنى ألحانا صعبـة ومـرة طقطوقة خفيفة. كان والدها أحمد الحمزاوى منشـدا ومبتهـلا لكن أختيها تخصصتا فى الغناء الخفيف والمونولوجات.

شـاركت فتحية فى المسرح الغنائى كمطربة وممثلة وتنقلت مع الفرق المسرحية الغنائية بين مصر وسوريا فسميت بمطربة القطرين. وشاركت فى فيلم «عايدة» الذى قامت ببطولته أم كلثوم. وغنت فيه فتحية دور الأميرة أمنيرس ابنة الملك المصرى وفى نفس الوقت غنت دور ابنة ملك الحبشة. وظلت أغنيتها «يا حلاوة الدنيا يا حلاوة» التى كتبها بيرم التونسى ولحنها زكريا أحمد وهى أشـهر مـا غنت وتوفيت ١٩٧٥. والمطربـة ملك المولودة ١٩٠١ أحبت فن الأوبريت ونجحت فى الأغنية الوطنية وكانت جميلة، تزوجت من ابن شـقيق الزعيم مصطفى النحاس رئيس وزراء مصر الأسبق. امتلكت مسرحا، فى وسط مدينة القاهرة، وكانت تعلن تحديها لأم كلثوم ؛ لكنها خسـرت أموالها واسـتدانت وباعت فيلتها، وفى أرشـيف الإذاعة المصرية تسـجيل لأوبريت بعنوان «مايسه» كانت قامت بتلحينه وبطولته على المسرح وتوفيت ١٩٨٣.

ونـادرة أمـين مولودة فى حى عابديـن من أب مصرى وأم لبنانيـة الأصل عام ١٩٠٦. درسـت العزف على العود. وكان لحنها «يقولون ليلى فى العراق مريضة.. يا ليتنى كنت الطبيـب المداويا». والذى غنته فى فيلم «أنشـودة الفؤاد» سـببا فى نجـاح الفيلم. الذى شاركت فى بطولته مع جورج أبيض وزكريا أحمد عام ١٩٣١ وقبل أن تظهر أم كلثوم فى السينما. لكن نادرة تراجعت وتقاعدت عام ١٩٣٤. وتوفيت عام ١٩٩٠.

ونجاة على كانت أجمل المطربات فى جيلها وأصغرهن سـنا. مزجت فى أغانيها بين الجديد والقديم، فغنت القصائد وغنت المواويل. وقدمت الأغنية الخفيفة. غنت بمصاحبة «تخت» منذ عام ١٩٢٩ لكنها لم تصل للشـهرة إلا فى عام ١٩٣٦. حينما لحن لها رياض السـنباطى وغنى معها «ديالوج» غنائى وقامت ببطولة فيلم «دموع الحب» أمام محمد عبد الوهاب عام ١٩٥٣ ثم شاركت فى بطولة خمسة أفلام أخرى. وتوفيت عام ١٩٩٣.

ظهـرت أثار حفظ أم كلثوم للقرآن الكريـم فى طفولتها فى كتّاب قريتها طماى الزهايرة مركز السـنبلاوين بالدقهلية. وكذلك غناؤها للقصائد والتواشـيح الدينية فى سـن الطفولة. وممارسـتها ذلك فى الأفراح والليالى الملاح فى بيوت الوجهاء والأعيان. ظهرت آثاره على نطقها السليم للغة العربية، والتزامها بالقواعد المتبعة فى ذلك. كما حبب إليها فن القصيدة بكل موضوعاتها وقرأت الشـعر العربى قديمه وحديثه. ولم يكن دورها هو فقط الاسـتماع فى جلسـات الشـعراء والمثقفين أمثال أحمد رامى وصالح جودت وغيرهما. إنما بالمشاركة والمناقشة والتحليل.

غنت أم كلثوم لأكثر من خمسـين شاعرا قديما وحديثا مصريا وعربيا منهم عمر الخيام، وصفـى الدين الحلـى. الأمير عبد الله الفيصـل، نزار قبانى. الهـادى آدم، على أحمد باكثير. جورج جرداق، محمد إقبال (باكسـتانى) أحمد شـوقى، محمود حسن إسماعيل. عزيز أباظة. صالح جودت. طاهر أبوفاشا. كامل الشناوى، محمد الأسمر. الشيخ عبد الله الشبراوى. أحمد فتحى. أحمد رامى.

ومن الشـعر العامى والأغانى. غنت لبيرم التونسـى وصلاح جاهين ومأمون الشـناوى وأحمد شفيق كامل وعبد الفتاح مصطفى وعبد الوهاب محمد ومرسى جميل عزيز وعبدالمنعم السباعى بالإضافة إلى أحمد رامى طبعا أما الملحنون الذين حظوا بالتلحين للصوت العبقرى فهم الشيخ أبو العلا محمد والشيخ زكريا أحمد وأحمد صبرى النجريدى وفريد غصن ومحمد

القصبجى وداوود حسنى ورياض السنباطى ومحمد الموجى وبليغ حمدى وكمال الطويل وسيد مكاوى ومحمد عبد الوهاب. وأم كلثوم معهم جميعا.

ولم تتخلف أم كلثوم عن ركوب عجلة الزمن وظهرت فى ستة أفلام سينمائية وكان فيلمها «وداد» أول فيلم مصرى يتم عرضه فى مهرجان فينسيا الدولى ١٩٣٦ بعد إنشائه بأربع سنوات وهو من إخراج «فريتز كرامب».

وقد فرض على أم كلثوم الدخول فى معارك كثيرة لحماية مسيرتها المشرفة من أعداء الحياة وأعداء النجاح والطامعين فى تعطيل الانطلاق فى عمق التاريخ. من هذه المعارك ما هو سياسى ومنها ما هو فنى أو اجتماعى.

خاضت أم كلثوم مع القصر الملكى ما يسمى بمعركة «الفستان الأسود» الذى أعدته لترتديه فى حفل زفاف الأميرة فوزية وولى عهد إيران رضا بهلوى. وقد اعترضت الملكة ناظلى أم الملك فاروق على لونه فهو يساوى بين فستان أم كلثوم وفساتين بنات وسيدات الأسرة المالكة فى نفس المناسبة.

أما معركة «نيشان الكمان» فقد بدأتها شقيقات الملك فاروق ضد أم كلثوم. فبإهداء الملك لها هذا النيشان يكون قد ساوى بينها وبينهم وهى معركة لا تقل ضراوتها عن معركة الملك نفسه وأسرته مع أم كلثوم لمنعها من الزواج «الشرعى» من شريف صبرى خال الملك.

أما المعارك السياسية فقد بدأت بمنع أحد أعضاء ثورة يوليه أغانى أم كلثوم من الإذاعة بحجة أنها سبق أن غنت للأسرة المالكة لكن سرعان ما تدخل جمال عبد الناصر وأعاد لها ولجمهور الراديو الحق المسلوب لمدة أيام.

وتنفى السيدة جيهان السادات ما يقال عن معركتها مع أم كلثوم وما يشاع بأن الكراهية قد دخلت قلبها للنجمة الكبيرة عندما اضطر زوجها الرئيس الراحل أن يؤدى التحية العسكرية لأم كلثوم على سلم الطائرة التى أقلتها إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى رحلتها الأولى للعلاج هناك.

وكان قد كلفه الرئيس جمال عبد الناصر بذلك. وقيل إن أم كلثوم أعلنت عن نيتها باعتزال الغناء لوفاة عبد الناصر. قد أغضب ذلك زوجة الرئيس الجديد أنور السادات وزاد الطين بله أن أم كلثوم هنأت الرئيس أمام عدد من كبار رجال الدولة بعبارة «مبروك يابو الأنوار».

وقيـل أن عقـاب السـيدة الأولى لأم كلثوم قد تحدد فى البحث عـن نجمة للغناء تحل محل أم كلثوم وتزيحها عن عرشها. و تحدد أيضا فى إلغاء مشروعها الخيرى «دار الخير لأم كلثـوم» بعد أن تم وضع حجر الأسـاس لـه. ودفعت أم كلثوم من مالها ٧٥ ألف جنيه دعما له.. وتعليقا على كل هذه الأقاويل قالت السـيدة جيهان: «أولا أم كلثوم من الذكاء بحيـث لا تخطىء». وأنور السـادات كان يحبها وأنا أيضا، وهـى كانت تحبنا، وأنا من القلائل الذين كانوا يحرصون على زيارتها وهى مريضة. ولم تقل لأنور أبدا «يا بو الأنوار» وهذه شائعة خرجت وكبرت ولا أساس لها من الصحة. وكنا نذكرها أنا وثومة ونضحك، واستغربت أن بعض الكتاب لم يرجعوا للحقيقة ورددوها دون علم. وصراع آخر لم تتعرض له أم كلثوم فى شخصها إنما فى واحدة من إبداعاتها وقد شارك كاتب هذه السطور البحث عن قصيدة كلثومية مختفية أو كما أطلقنا عليها «ثروة تائهة يا أولاد الحلال وهذه تفاصيل القضية»:

أم كلثوم قيمة وكل أغنية قدمتها تعتبر أثرا.. وكل قصيدة غنتها هى تحفة ولذلك كثف المؤرخون والمحققون للتراث جهودهم لرصد تاريخ أم كلثوم وتسـجيل تاريخها الشـخصى والفنـى وحفـظ إنتاجها فـى كل مراحله، اختلفـوا حول يوم ميلادهـا، واتفقوا على كل أعمالها، وسـجلت اللجنة الموسـيقية العليا برئاسـة أحمد أبو عوف نصوص كل أغانيها وصحح المؤرخ الفنى محمود كامل بعض الأخطاء الشائعة حول مؤلفيها وملحنيها، وسجلت شركة صوت القاهرة كل أغانيها على أسطوانات ثم كاسيتات والمفروض بعد كل هذا الجهد أن تكون أعمال أم كلثوم كاملة وفى الحفظ والصون.

اكتشـف هذا الأسـبوع (فى عام ١٩٨٧) ضياع ثروة كلثومية عظيمة. فعندما سـجلت أم كلثوم قصائد الدراما الإذاعية «شـهيدة العشـق الإلهى رابعة العدوية» عام ١٩٥٨. كان من بينها قصيدة بعنوان «غريب على باب الرجاء طريح» من أشعار طاهر أبو فاشا ولحن كمال الطويل.ولأسباب فنية – كما علمت – أو لأسباب درامية تقرر استبعاد القصيدة من أحداث الأوبريت. ولم يسـمعها أحد إلا مؤلفها وملحنهـا وأم كلثوم والمخرج والعازفون فى فرقتها ومهنـدس الصوت فـى الإذاعة. فإذا تصورنا مدى الجمال والإتقان والشـجن الذى جاءت به قصيدة «لغيرك ما مددت يدا» التى شـارك فى صنعها نفس الثلاثى العظيم فى التأليف والتلحين والغناء. لتخيلنا مدى الخسارة باختفاء القصيدة المفقودة.

إننى أطالب الإذاعة وشركة صوت القاهرة بالبحث عن هذه الثروة الكلثومية فهى من الكنوز المصرية ومسئوليتها فى رقبة كل من الجهازين الكبيرين.

محمد قابيل

أم كلثوم بعد ١٢ سنة من رحيلها..

هل تدخل المحكمة؟!

كتبت فى «مجلة أكتوبر» العدد رقم ٤٤١ الصادر ٥ مارس ١٩٨٧ أطالب الإذاعة وصوت القاهرة بالبحث الجاد عن درة مفقودة من درر أم كلثوم وهى قصيدة «غريب على باب الرجاء طريح». واستجابت صوت القاهرة لطلبى وبحثت ونقبت فعثرت على القصيدة.

وطبعتها على شريط كاسيت تم طرحه فى مناسبة المولد النبوى الشريف. لكننى عندما طالبت بذلك لم يكن يخطر على بالى بأننى سأدخل أم كلثوم العظيمة المحكمة وهى النجم الساطع الذى أطرب كل العرب بل والعالم كله بشهادة جريدة «الهيرالد تريبون» الإنجليزية التى كتبت عن أم كلثوم أنها أشهر من نجوم الغناء فى أوروبا، وأن تأثيرها فى العرب عظيم.

ما كنت أتصور أننى سأدخلها قاعة المحكمة بعد رحيلها بأكثر من ١٢ سنة، فقد اعترض الشاعر طاهر أبو فاشا كاتب القصيدة والموسيقار كمال الطويل ملحنها على طبع القصيدة، وطلبا من المستشار القانونى لجمعية المؤلفين والملحنين أن يرفع الأمر للقضاء مطالبين شركة صوت القاهرة بتعويض قدره نصف مليون جنيه.

لكن ما السبب؟

يقول أبو فاشا: هذا اللحن كان مكتوبا وملحنا لأوبريت «رابعة العدوية» التى أخرجها عثمان أباظة للإذاعة، وعندما غنته أم كلثوم قال المخرج إن اللحن ليس مناسبا للموقف الذى كتبت من أجله فى الأوبريت.

قلت: تقصد ناعم؟

قال: يا ريت!، بالعكس كان لحنا إيقاعيا يعنى فيه دفوف، مع إن رابعة كانت تجلد فى الموقف وتئن لأن وليها كان يضربها بعنف ليرغمها على الشراب بعد إيمانها.

ويجب أن تبكى لا أن تغنى على الدفوف. وأم كلثوم قالت «ماشى إلغوا هذا اللحن». وطلبت منى كتابة قصيدة أخرى بدلا من «غريب على باب الرجاء» فرفضت طلبها وقلت «لن أكتب غيرها.... ألم يعجبك كلام الأغنية؟» ردت: أعجبنى، قلت: إذن اسندى مهمة تلحينه لملحن آخر. قالت: لا أريد أن أغضب كمال. قلت: لا. وظللنا ستة أشهر بلا جديد. ظلت خلالها تتصل بى تليفونيا، أرد: مين؟.. تقول: «ستك، أقول: يا ستى أنا ماليش غير ست واحدة ساكنه فى ٥ شارع أبو الفدا بالزمالك (عنوان فيلا أم كلثوم أيامها)..

وبعد ستة أشهر من الاتصالات، كتبت قصيدة بديلة وتم إلغاء لحن قصيدة غريب على باب الرجاء.. وحلت محلها القصيدة الجديدة «على عينى.. بكت عينى.. على روحى بكت روحى» وظل لحن «غريب على باب الرجاء» مركونا فى الإذاعة، ولم نتقاض أجره لا أنا ولا كمال الطويل.

قلت له: كم كان أجركما؟

قال: فى عام ١٩٥٧ كان أجرى ٣٠٠ جنيه عن الأوبريت كله كمعالجة درامية وكتابة ست أغان فيه، وكان ذلك أكبر أجر فى الإذاعة.

قلت: والطويل؟

قال: ٣٥ جنيها عن اللحن الواحد.

قلت: وبكم تطالب صوت القاهرة الآن كأجر القصيدة التى كانت مفقودة؟

قال: الطويل هو الذى طالب لى وله من خلال المستشار القانونى لجمعية المؤلفين والملحنين وسوف نتقاسم المبلغ.

قلت: أستاذ طاهر! لقد أبكتنى القصيدة كثيرا.

قال: أين سمعتها؟

قلت: إنها الآن فى الأسواق مطبوعة على شريط كاسيت.

قال: لا أعلم: وراح يلقى بعض أبياتها:

غريب على باب الرجاء طريح
يناديك موصول الجوى وينوح
يهون عذاب الجسم والروح سالم

فكيــف وروح المســتهام جروح
وأهواك لكنى أخاف وأســتحى
إذا قلــت قلبى فى هواك جريح

□□□

كان لابـد أن نرجع إلى مستشــار جمعيــة المؤلفين والملحنين ليلقى الضــوء على القضية بالتفصيل.

عن كمال الطويل قال: إنه لحن هذه القصيدة منذ ٣٥ ســنة. وأنا غير راضٍ عنه بدليل أن أم كلثــوم لم تغنه، فاحتفظنا بالشــريط ولم أوافق على خروجه. فِلِمَ أظهروه؟!. وكيف تطبعه شركة صوت القاهرة؟ وردت الشركة على الطويل وقالت: لقد حصلت على عقد من الإذاعــة تم إبرامــه بيننا وبين كمال الطويل، ورد الطويــل: لم أتعاقد مع الإذاعة عن هذه الأغنية. بل احتفظ بالشريط لحساب أم كلثوم وتم ركنه.

أما طاهر أبو فاشــا- والكلام مازال للمستشــار القانونى لجمعية المؤلفين والملحنين- فقد تعاقد على «رابعة العدوية» كبرنامج.

وطبعا ظهر البرنامج بدون هذه القصيدة أى أنها لا تدخل ضمن الاتفاق ولا يشملها عقد طاهر أبو فاشــا. إذن فالعمل خرج وتم طبعه على كاســيت دون ســند قانونى عند «صوت القاهرة».

سألت: ولو أن الإذاعة أظهرت عقدين مع أبو فاشا والطويل؟

قال: طبعا يكون من حق صوت القاهرة طبعها على أساس أن من حقها أن تنقل المتوافر من إنتاج الإذاعة وتنشــره على علامتها التجارية على أن تسدد لجمعية المؤلفين والملحنين ٨٪ من قيمة التوزيع لحساب المؤلف والملحن.

قلت: هل هناك أخطاء فنية تقع تحت طائلة القانون؟

قال: فعلا «لقد طبعوها على أنها منقولة من حفلة، وأم كلثوم لم تغنها فى حفلة، فهى أغنية تعبر عن أنين وألم. ولو أن الطويل قدم اللحن أساسا ليغنى فى حفل عام لاختلفت جملته اللحنية للتماشى مع طبيعة غناء الحفلات.

قلت: وما هى طلبات الطويل؟

قال: الطويل طلب وقف نشــر الشــريط المطبوع عليه الأغنية، وإلــزام «صوت القاهرة»

بتعويض مالى قدره نصف مليون جنيه.

قلت: وما موقف «صوت القاهرة»؟

قال: يقولون، عندنا عقد مع الإذاعة. وإن هذه حفلة مغناه ومسجلة على شريط أرسلته فعلا صوت القاهرة إلى الجمعية لفحصه، وشكلت الجمعية لجنة للفحص حضر جلستها المؤلف والملحن. وأكدت اللجنة أن «التصفيق» ليس تصفيق حفلة إنما هو مضاف للأغنية الأصلية والدليل على ذلك أن التصفيق يبدأ قبل أن تغنى أم كلثوم ثم تبدأ الفرقة الموسيقية فى العزف ثم تغنى أم كلثوم بلا تصفيق مع إن أم كلثوم عندما كانت تغنى. لو قالت آه.. تموج الصالة بالتصفيق. وبعد أن تنتهى من غناء المذهب يصفق الجمهور ثم يسكت ويسود صمت القبور. فواضح أنه ليس تسجيلا حيا من حفلة وأنه تسجيل استوديو

لم أكن أتصور أن أكون سببا فى أن تدخل أم كلثوم العظيمة المحكمة، فقد طالبت بضرورة الكشف عن هذا الأثر، وعندما استمعت إلى القصيدة وجدتها بعيدا عن الموقف الدرامى الذى كتبت من أجله قصيدة عظيمة أخذتنى على جناح الشوق والوجود والشجن إلى عالم النقاء والتصوف والتطهر، ومن الناحية اللحنية فإننى اختلف مع موسيقارنا كمال الطويل وأؤكد أن اللحن عظيم وجميل وروحانى، والفنان دائما لا يرضى عن فنه ليقدم الأفضل والأكثر إبداعا، وكان الطويل هذا الفنان. أما أم كلثوم فقد أدتها بعبقرية كالعادة وفى صوتها جمال وأنين وشجن.

إننى أطالب رئيس شركة صوت القاهرة بتقديم صورة عقد شركته مع الإذاعة لطبع هذه القصيدة للمستشار القانونى لجمعية المؤلفين والملحنين لتوضيح الموقف القانونى لكل الأطراف، وأرجو المستشار القانونى أن يسعى لحل المشكلة المادية مع الطويل وأبو فاشا لتعويضهما مع إعادة طبع القصيدة بلا تصفيق. فإذا كانت مدتها أقل من أن تطبع بمفردها على شريط كاسيت فليطبع معها قصيدة «لغيرك ما مددت يدا» لنفس المؤلف والملحن وأم كلثوم خسارة أن نحرم من قصيدة «غريب على باب الرجاء» تلك التحفة النادرة فى عالم لم تعد فيه تحف أبدا

محمد قابيل

الطويل كان متنازلا لأم كلثوم

حدثت مفاجأة فى قضية «غريب على باب الرجاء» لأم كلثوم، فقد قدمت شركة صوت القاهرة للصوتيات والمرئيات للمستشار القانونى لجمعية المؤلفين والملحنين صورة العقد الذى يعطى الشركة السند القانونى فى طبع القصيدة المذكورة التى طبعتها منذ أيام، والعقد وقعه الموسيقار كمال الطويل بتاريخ ٢٣ سبتمبر ١٩٥٧ مع أم كلثوم مباشرة ونصه:

«استلمت أنا كمال الطويل مبلغ ٣٠٠ جنيه ثمن تلحينى لأغنية من أغانى رابعة العدوية الأولى «لغيرك ما مددت يدا» والثانية «غريب على باب الرجاء» وبذلك تنتقل حق ملكية الأغنيتين المذكورتين إلى أم كلثوم لاستغلالهما كيفما تشاء فى الإذاعة وإذاعتهما فى الحفلات الخاصة وطبعهما على إسطوانات، وليس لى حق التصرف فيهما مع احتفاظى بحقوقى الأدبية والمادية لدى جمعية المؤلفين والملحنين».

وتقاضى الطويل المبلغ بتاريخ ٢٢ سبتمبر ١٩٥٧ بشيك على بنك مصر.

وكانت أم كلثوم تعاقدت فى ١٥ أكتوبر ١٩٥٧ مع الإذاعة ويمثلها محمد أمين حماد على أن تقدم ٦ أغنيات هى «يا صحبة الراح» و «أحبك حبين» و «حانت الأقدار» و «أوقدوا الشموس» و«لغيرك ما مددت يدا» و «يهون عذاب الجسم» و الأخيرة هى قصيدة «غريب على باب الرجاء» دفعت الإذاعة لأم كلثوم ١٢٣٥ جنيها مقابل تلحين الأغانى الأربع الأخيرة وهى من ألحان محمد الموجى (اثنان) وكمال الطويل (اثنان) وأعطت أم كلثوم حق التصرف فيها، وبالتالى فقد أصبح من حق شركة صوت القاهرة التصرف فى الأغنيات الأربع حسب الاتفاق المبرم بينهما وبين الإذاعة والتليفزيون فى طبع إنتاج الجهازين على إسطوانات وكاسيت وفيديو مقابل مبالغ تحددها اللائحة المحددة لذلك.

ومع ذلك فلم تنته مشكلة «قصيدة غريب على باب الرجاء» التى اكتشفنا اختفاءها وطالبنا بسرعة طبعها، واستجابت لنا شركة صوت القاهرة التى عثرت على صورة عقد مع مؤلفها الشاعر طاهر أبو فاشا وكان قد قال لنا أنه لم يتعاقد على هذه القصيدة بالذات، ويطالب الشركة بأجر عنها قدره عشرة آلاف جنيه لأنه تعاقد عام ١٩٥٧ عن برنامج رابعة العدوية وفيه ٦ أغنيات وتقاضى مبلغ ٣٠٠ جنيه، ولم تكن «غريب على باب الرجاء»

ضمن الصورة النهائية للبرنامج.

كذلك تبقى مشكلة المونتاج الذى اعترض عليه الموسيقار كمال الطويل وأقرت لجنة جمعية المؤلفين والملحنين اعتراضه.

ومازال الحوار مستمرا بين أطراف المشكلة حتى لا تدخل أم كلثوم المحكمة بعد ١٢ سنة من رحيلها.

محمد قابيل

□□□

إن فقدان هذه القصيدة الرائعة فى كلماتها ولحنها وآدائها أدى إلى الاعتداء غير المقصود عليها. فقد أعاد محمد الموجى تلحينها وغنتها المطربة أميرة سالم للإذاعة قبل أن يعاد اكتشافها بصوت أم كلثوم وألحان كمال الطويل، لتختفى قصيدة أميرة اختفاء كاملا ولا نظن أن هناك من سوف يدعو للبحث عنها حبا وتقديرا لقصيدة أم كلثوم الرائعة.

قدمت أم كلثوم عشرات القصائد والأناشيد فى حب الله ورسوله والوطن، وتحول نشيدها «والله زمان يا سلاحى» إلى النشيد المصرى القومى لفترة طويلة.

ولما وقعت نكسة يونيه ١٩٦٧. هبت لجمع التبرعات المالية والعينية من أجل إعادة تسليح الجيش المصرى، وقبل أن تبدأ رحلتها العظيمة تبرعت بمجوهراتها ضاربة المثل أمام أهل النخوة الوطنية فى مصر والبلاد العربية.

غنت على مسرح أوليمبيا الباريسى وفى عواصم بعض الدول العربية. ولاقت فى كل دولة الاستقبال اللائق بها كنجمة فريدة لم يسبقها فى نجوميتها نجم أو نجمة، فهى الدرة الثمينة فى تاريخ الغناء العربى.

وكانت أم كلثوم سببا فى إنشاء معهد الذرة فى مصر، وكان الفضل لمعونة قدمتها الطاقة الذرية لانقاذ الحياة الفنية لأم كلثوم، فى وضع الحجر الأول فى مشروع الرئيس الأمريكى ايزنهاور لاستغلال الذرة فى الأغراض السليمة فى الدول الأجنبية.

ولاقت التكريم من بلادها. فى ١٩٦٨ فازت بجائزة الدولة التقديرية وجاء فى حيثيات الجائزة «أم كلثوم قدمت إلى الدولة فى جميع المناسبات القومية صورة من تفاعل الفن وتجاوبه مع الأحداث الكبرى. وأنها أشاعت التذوق الجمالى عن طريق اللحن والنغم بصوتها الفريد الأمر الذى فرض نفسه فنيًا على جميع المستويات المحلية والعالمية.

وقال المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية:

«إن أم كلثوم استطاعت أن تعمق معنى الكلمة العربية وتوصلها إلى النفوس عن طريق آدائها المميز. واستطاعت أن تضيف إلى التاريخ الفنى مدرسة تعتمد على صفات لها قيمة فى استمرار التراث الفنى وفى نفس الوقت بعيدة عن التجمد مما أعطاها التطور الحى المستمر».

وأصدرت مصلحة سك العملة فى مصر عملة تذكارية ذهبية وفضية تخليدا لها وأصدرت هيئة البريد طابعا تذكاريا يحمل صورتها، وأقيمت لها ثلاثة تماثيل وضعت فى حديقة الأوبرا ، وأمام موقع فيلتها التى كانت تسكنها فى الزمالك، وفى ميدان رئيسى فى مدينة المنصورة عاصمة المحافظة التى ولدت فيها.

وقد حاولت وزارة الثقافة المصرية أن تصلح ما أفسدته فى مجال تكريم أم كلثوم بالتقاعس عن شراء فيلتها بشارع أبو الفدا بالزمالك، وحولت قصر المانسترلى فى منيل الروضة إلى متحف لها، ومسرح يخلد ذكراها ويتيح للجماهير فرصة الاطلاع على أشيائها التى تعكس قيمتها ومجدها الفنى.

مما نراه فى هذا المتحف الآثار والقطع الفنية الأتية:

- هلال مرصع بالماس وزنه ٣٤ جراما ومصنوع من البلاتين.
- وسام الكمال الذى حصلت عليه عام ١٩٤٦ من الملك فاروق.
- قلادة النيل التى حصلت عليها من الرئيس جمال عبد الناصر ١٩٥٣ وهى مصنوعة من الذهب عيار ١٨.
- وسام قلادة الاستحقاق ووزنه ٢٥٠ جراما من الفضة والنحاس والذهب ومحفور عليه اسم الصائغ الذى صممه وهو توفيق بشاى.
- جواز سفرها الدبلوماسى رقم ١٥٣٤ الصادر عام ١٩٧١ من الجمهورية العربية المتحدة.
- مصحفها الصغير المطعم بالصدف والجلد الطبيعى بزخرفة تركية.
- نظارتها الكريستان ديور الشهيرة وهى مصنوعة فى النمسا بإطار من البلاتين.
- وسام من الملك فاروق من الورق أهداه إليها عام ١٩٤٦ فى حفل أقامه النادى الأهلى لصالح الإذاعة المصرية.
- مخطوطة أغنية «الحب كده» بخط مؤلفها بيرم التونسى. مكتوبة على ورق يحمل شعار

الإذاعة المصرية القديم باللون الأزرق ويحتوى على ٢٤ سطرا وبها تعديلات بخط بيرم باللون الأحمر

- مخطوطة لقصيدة «هذه ليلتى» بخط مؤلفها جورج جرداق، ومكتوب على أحد أطرافها اسم دواء لمحمد التابعى Complain.
- ومخطوطة القصيدة «سلوا كؤوس الطلا» بخط مؤلفها أحمد رامى.
- ومخطوطة لأغنية «حيرت قلبى معاك» بخط نفس المؤلف.
- فستانها البرتقالى المصنوع ١٩٦٨ من الكريب والستان.
- إشاربها الأحمر الشهير.

ولاقت التكريم من كل العرب ففى لبنان قلدت وسام الأرز اللبنانى وأهدتها شخصية عربية كبيرة كسوة الكعبة الشريفة كاملة وهى هدية لا تقدر بمال.

وقلدها الملك حسين ملك الأردن وسام النهضة الأردنى.

ونالت وسام الاستحقاق السورى من الدرجة الأولى.

وفى السودان صلى الناس شكرا لله فى المسرح أثناء غنائها وزارت مدرسة فاطلقوا اسم أم كلثوم عليها.

وفى الكويت رشوا عليها العطور واستقبلتها الجامعة الكويتية واستقبلها حاكم الكويت.

وقدمت الإذاعة اليابانية برنامجا خاصا بمناسبة زيارتها للكويت وفى المملكة العربية المغربية قدم أهل مدينة فاس لها شمعة خضراء طولها مترا من الذهب الخاص.

وفى تونس منحها الرئيس التونسى وسام الجمهورية الذى لا يمنح إلا لرؤساء الدول، وعزف السلام الجمهورى من باب الاستثناء.

وفى باكستان، مُنحت أم كلثوم وسام «نجمة الامتياز».

قال عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين عن أم كلثوم:

«صوتها النادر فى امتيازه سواء فى الجمال أم فى جودة النطق للغة العربية. ساعدها عندما غنت القصيدة فى اتقان جمال اللغة وموسيقاها حتى فى أصعب الكلمات لموسيقى الغناء، وكان لصوتها فضل جريان الشعر العربى على ألسنة العامة والخاصة».

وقال الأديب توفيق الحكيم:

«أم كلثـوم كانت تـؤدى كل قصيدة وكل أغنية. وكل لحـن. الأداء الكامل وهى صفة الفنان الأصيل».

وقالت الدكتورة نعمات فؤاد:

«أم كلثـوم بنـت بيئتها. وهى الاسـتمرار المتجدد. وأنها اختلطـت بالأرض وصنعت تاريخها وعبرت عن تاريخ أمتها».

ولا يوجـد فـى تاريخ الغناء العربـى من تبارى الكتاب والمفكرون فـى التأريخ له ولفنه والاجتهاد فى رصد أعماله وتحليلها موسيقيا واجتماعيا كما حدث مع هذه الفنانة العظيمة درة الغناء العربى طوال تاريخه فصدرت عنها النشرات والكتب بكل اللغات الحية ونسوق هنا بعض ما صدر فى مصر والدول العربية.

- «أم كلثوم عصر من الغناء» تأليف د. نعمات فؤاد ويتعرض لمسـيرة النجمة العظيمة فى الأطر الاجتماعية والسياسية والظروف النفسية التى صاحبت العصر الذى عاشته.
- «أم كلثوم معجزة الغناء» تأليف د. رتيبة الحفنى ويحوى أسرارا لم تنشر عن طفولة أم كلثوم والمرحلة الأولى فى نجوميتها وكانت أثناءها صديقة لأسـرة المؤلفة ووالدها رائد التعليم الموسيقى وصناعة آلات النفخ الموسيقية الدكتور محمود أحمد الحفنى.
- «رجـال فـى حياة أم كلثـوم» تأليف عبد النور خليل ويتعرض لكل من سـاهم فى بناء شخصية هذه السيدة. ومن ساعدها ووقف بجوارها وخاض إلى جانبها بعض معاركها.
- «أم كلثوم وزكريا أحمد أمام القضاء» تأليف كمال سـعود ويتعرض لثمانى سـنوات خلت من ألحان الشـيخ زكريا على حنجرة أم كلثوم بعد خلاف دب بينهما لمطالبة الشيخ برفع أجره عن التلحين لها وبمبالغ مستحقه له عندها. وقد انتهى الخلاف بالصلح فى المحكمة.
- «سـيدتان مـن مصر» تأليـف حنفى المحـلاوى ويتعرض للعلاقة بين السـيدة جيهان السادات (سيدة مصر الأولى فى عصر حكم الرئيس الراحل أنور السادات) وأم كلثوم.
- «شعراء أم كلثوم» تأليف حنفى المحلاوى ويعرض قصصا وراء كل عمل غنائى قدمته أم كلثوم وعلاقته بمؤلف هذا العمل.
- «عبد الناصر وأم كلثوم» تأليف حنفى المحلاوى ويتعرض للعلاقة القوية والصداقة المتينة التى ربطت زعيم ثورة يوليه بأم كلثوم قبل إعلان الثورة إلى يوم وفاته.

- «معارك أم كلثوم» تأليف حنفى المحلاوى ويتعرض للمعارك السياسية والفنية والاجتماعية التى خاضتها أم كلثوم فى سبيل المحافظة على مسيرتها الفنية وسمعتها أيضا.
- «أم كلثوم» تأليف فيكتوريا سحاب ويتعرض لمسيرة أم كلثوم مع تحليل لكل ما غنت.
- «أم كلثوم: موسوعة أعلام الموسيقى العربية كتاب وإسطوانة الكتاب الأولى، إعداد د. إيزيس فتح الله ومحمود كامل من مطبوعات المشروع القومى للحفاظ على تراث الموسيقى العربية التابع لمركز توثيق التراث الحضارى والطبيعى، مع دار الشروق وهو رصد لنصوص كل الأشعار والأغانى التى تمثل كل تراث أم كلثوم.
- «ملحنو أم كلثوم» تأليف فوزى السعداوى ويلقى الضوء على الملحنين الذين شاركوا أم كلثوم مسيرتها الفنية.
- «أم كلثوم التى لا يعرفها أحد» تأليف محمود عوض ويسوق بعض المعلومات التى لم تكن شائعة عن حياة أم كلثوم الخاصة والعامة.

حققت أم كلثوم للغناء العربى الحلم بالعالمية بغناء إنسانى، حافظ على محليته العربية، تماما كما كانت روايات وقصص نجيب محفوظ التى استحق عنها جائزة نوبل العالمية.

عندما استمعت المطربة الإنجليزية فيفيان لى لصوت أم كلثوم فى الأربعينيات قالت «أم كلثوم معجزة من معجزات الدنيا».

ولما استمع إليها الناقد الموسيقى للصحيفة الفرنسية «بارى ماتس» فى مسرح أوليمبيا كتب يقول:

«المطربة المصرية أم كلثوم صاحبة أقوى حنجرة فى العالم، وعلى رغم أننى من أشد المعجبين بصوت مغنين الأوبرا ماريا كالاس وبقوة حنجرتها، فإن ذبذبات صوت أم كلثوم تفوق بكثير مشاهير الغناء فى العالم، سواء فى الغناء العادى أم الأوبرالى».

أما المخرج الفرنسى جان ميشيل جار فقال عنها:

«أم كلثوم هى النجمة الحقيقة للعرض الإليكترونى الذى قدمته فى الاحتفال باستقبال الألفية الثالثة.

وجاءت قصيدة أم كلثوم «الأطلال» شعرالدكتور إبراهيم ناجى وألحان رياض السنباطى من بين أفضل مائة عمل فنى وأدبى شكلت ذاكرة القرن العشرين فى العالم. جاء ذلك فى استطلاع للرأى الفرنسى أجرته المجلة الفرنسية «لوماند» لاختيار روائع القرن العشرين

الفنيـــة والأدبية، فجـــاءت «الأطلال» جنبا إلى جنب مع الســـيمفونية التاســـعة لبتهوفين والســـيمفونيات الرابعة والخامسة والسادسة لتشايكوفسكى ضمن الأعمال الفنية والموسيقية التى سوف تبقى كتراث إنسانى للأجيال القادمة.

وأسفر استطلاع للرأى الفرنسى عن أشهر عشرين سيدة فى العالم فى القرن العشرين عن أن أم كلثوم واحدة من أبرز عشرين سيدة بزغ نجمهن فى هذا القرن.

وفى فرنســـا أيضا صدر عن أم كلثوم عدة كتب باللغة الفرنســـية منها «أم» تأليف ســـليم نسيب (فرنسى من أصل لبنانى) و«أم كلثوم.. كوكب الشرق» تأليف إيزابيل صياح وبوديس. وكتب له المقدمة الرئيس الســـابق حســـنى مبارك. وكتب النجم العالمى عمر الشريف مقدمة أخرى له. وتمت ترجمته إلى العربية من خلال المجلس القومى، كما أعلن برتران ديلانوى عمدة باريس أنه قرر إطلاق بعض الأسماء العربية على شـــوارع باريس، منها اســـم أم كلثوم وكانت شوارع باريس قد زينت بصور بالحجم الطبيعى لأم كلثوم وأضيئت بالنيون بمناسبة الإعلان عن الحفلات التى ستحيها أم كلثوم فى مسرح أوليمبيا.

وفـــى إيطاليا حولت الممثلة إليزابيتا بورى كتاب «أم» لســـليم نســـيب إلى مســـرحية تم عرضها عام ٢٠٠٤ بعنوان «أم كلثوم أحببتك لأننى أحببت صوتك».

وفـــى الولايات المتحدة الأمريكية. صدر كتاب «صوت مصـــر أم كلثوم» تأليف فرجينيا دانيلسون وترجمه عادل هلال عنانى إلى اللغة العربية.

وخصصـــت جامعة شـــيكاغو ركنا للأبحاث المكتوبة عن أم كلثوم وأعد أحد أســـاتذتها كتابا عنها.

وفى كندا أخرجت إحدى المخرجات هناك فيلما تسجيليا تحكى عن مشوارها وفنها.

وفى ألمانيا حصلت كاترينا بوم على درجة الدكتوراة من إحدى الجامعات هناك.. كان موضوع رسالتها عن أم كلثوم.

لقـــد فرضت أم كلثوم فنها على العرب وغير العرب فأصبحت كوكب الشـــرق والغرب. وكما فرضته على الشعوب المحبة للحياة والسلام فرضته على أعداء الحياة.

ففى إســـرائيل أعلن أن أغانى أم كلثوم ســـوف يدرسها تلاميذ المدارس الابتدائية هناك، وقالت الصحيفة الإسرائيلية «ها آرتس» التى نشرت الخبر أن إدراج هذه الأغانى إنما هدفه أن يتمكن التلاميذ من الإطلاع عليها لترقية أذواقهم.

والحقيقة أن أغانى أم كلثوم تلقى فى إسرائيل رواجا كبيرا ولا يخلو حفل لمطربتهم الأولى زافاناين من غناء قصيدة أو أغنية من تراث أم كلثوم.

□□□

لم تكـن مسـيرة أم كلثوم فى الارتقاء بالغناء العربـى ووصول المغنى إلى درجة كبيرة من احترام المجتمع بكل مستوياته الثقافية. لم تكن هذه المسيرة التى بدأت منذ طفولتها مجرد عصـر مـن الغناء الزاهى المحترم، إنمـا كانت أغلى وأعظم ما فى تراثنـا الغنائى وكانت أم كلثوم ليست مجرد كوكب الشرق إنما هى درة الغناء العربى على مدى التاريخ.

□□□

opeikandl.com